مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم للمعرفة
MOHAMMED BIN RASHID AL MAKTOUM KNOWLEDGE FOUNDATION

كتاب في دقائق
2018

ملخصات لكتب عالمية تصدر عن مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم للمعرفة

زايد

من التحدّي إلى الاتحاد

عام زايد

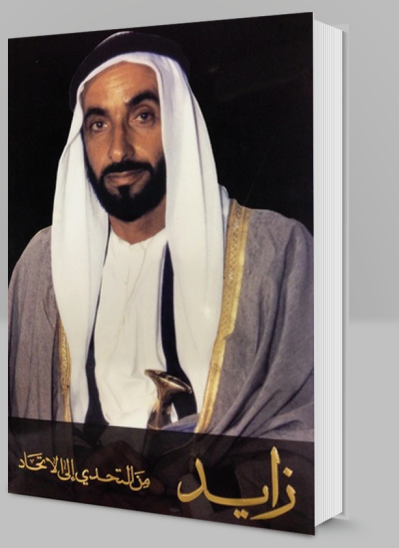

تأليف
جوينتي ماتيرا

الأرشيف الوطني
NATIONAL ARCHIVES
وزارة شؤون الرئاسة
Ministry of Presidential Affairs

154

المبادرات والمشاريع

برنامج دبي الدولي للكتابة
Dubai International Program for Writing
جائزة محمد بن راشد آل مكتوم للمعرفة
MOHAMMED BIN RASHID AL MAKTOUM KNOWLEDGE AWARD
2030 LITERACY CHALLENGE
التحدي الأمية
ملتقى العرب للابتكار

في ثوانٍ...

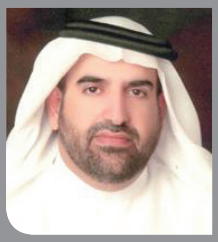

في العدد الثالث من سلسلة «كتاب في دقائق» يُشرفُنا تلخيص كتاب علمي تأليف الدكتورة «جويتي مايترا» برعاية سمو الشيخ منصور بن زايد آل نهيان، نائب رئيس مجلس الوزراء ووزير شؤون الرئاسة. الكتاب بعنوان: «زايد: من التحدّي إلى الاتحاد»، وقد صدر عن «الأرشيف الوطني»، وبإهداء مَهَرَه الشيخ منصور بقلمه حيث قال: «أهدي هذا الكتاب إلى روح والدي الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان طيب الله ثراه، تقديراً وإعجاباً بقيادته المتميزة وإسهاماته المجيدة لبلده وشعبه».ففضلاً عن الإلهام الذي تُسَطِّره سيرةُ الراحل العظيم، يَلمسُ القارئ أن الشيخ زايد كان سابقاً لعصره، حيث حَظِيَ بتقدير استثنائي وتفويض شعبي بقيادة الاتحاد لثلاثة وثلاثين عاماً حافلةً بالإنجازات. وما زالت الإمارات تُواصل مسيرتَها بوحيٍ من روح العصر وهي تُسابقُ الزمنَ وتسير من نجاح إلى نجاح.

تتلخص رؤية الكتاب في أنه تقع على الجيل الحالي من المثقَّفين الإماراتيين مسؤوليةُ فهم تاريخ بلادهم، بالاعتماد على مصادر متنوعة لتكوين صورة متكاملة عن التحديات التي قادت إلى الاتحاد. وتأتي الخُلاصة لتوجزَ دراسةً فريدةً اعتمدت على مصدرين أوليين وأساسيين من المصادر الأرشيفية هما: المكتبة البريطانية في لندن والأرشيف الوطني في أبوظبي، حيث عَرَضت تسلسلاً زمنياً لثلاث محطات رئيسة في حياة المغفور له الشيخ زايد السياسية، منذ أن كان ممثلاً لحاكم أبوظبي في العين، ثم حاكماً لإمارة أبوظبي، ثمَّ رئيساً للدولة.

وفي كتاب: «الثروة المعنوية للأمم: كيف يصنع السُّعداء مجتمعاً سعيداً» يكاد مؤلفه «شيجيرو أويشي» يُلخِّص ما أبدعه المغفور له الشيخ زايد في رحلة بنائه لدولة الإمارات السعيدة والقوية. فبعد أكثر من قرنين على صدور كتاب «ثروة الأمم» لآدم سميث، بدأ علماءُ النفس والاجتماع والاقتصاد يدرسون الثروات المعنوية والنفسية والقوة الناعمة للأمم. وفي هذا يشير المفكِّر الشهير «فرانسيس فوكوياما» إلى الدور الذي يلعبه رأسُ المال الاجتماعي في صنع سعادة الأفراد وتلاحم المجتمع ككل. حيث تلعب الثقافة والطاقة الإيجابية وروح التعاون والتآزر دوراً حاسماً في استيعاب وتدوير واستثمار الثروة المعنوية، ما يُثري عقلَ الإنسان ويقوده إلى حياةٍ أفضلَ.

وفي ملخص كتاب «الشبكة والفراشة: طفرات التفكير بين الفن والتطبيق» لكلٍّ من «أوليفيا فوكس كابين» و «يودا بولاك»، نكتشفُ أنَّ طفرات التفكير مثل الفراشات: جميلة ومُلهِمة، ولكن يَصعُب الإمساك بها. حالات الإلهام الخارقة لا تحدثُ بالتركيز والاجتهاد فقط، بل تتشكَّل بنمط يصعب تفسيره أو التنبؤ به. نحن في العادة نَتصوَّر هذه اللحظات مجرَّدمفاجآت فكرية خالصة لا سبيل إلى جذبها، وكأنها تحدث للمحظوظين والاستثنائيين فقط. والحقيقة أنَّ بإمكاننا اختبار لحظات الفتح والتجلِّي وتحويل المُلهِمات إلى مُمَكِّنات ومُمارسات.

جمال بن حويرب
المدير التنفيذي لمؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم للمعرفة

البدايات

تقع على الجيل الحالي من المثقَّفين الإماراتيين مسؤولية فهم تاريخ بلادهم بالاعتماد على مصادر مختلفة لتكوين صورة حيادية ومتكاملة، لذلك تأتي هذه الخلاصة لتوجزَ دراسةً كبيرة اعتمدت على مصدرين أساسيين هما: المكتبة البريطانية، والأرشيف الوطني، وهذه الدراسة فريدة في بابها لأنَّها اعتمدت على الوثائق الأرشيفية، ونادراً ما استعانت بالكتب أو المصادر المطبوعة، ولسوف نستعرض هنا وبتسلسل زمني، ثلاث مراحل مميَّزة ومهمَّة في حياة الشيخ زايد السياسية، حيث كان ممثلاً لحاكم أبوظبي في العين، ثم حاكماً لإمارة أبوظبي، ثمَّ رئيساً للدولة.

وُلِد الشيخ زايد عام 1918 بمدينة أبوظبي في قصر الحصن، مقر الحاكم، وهو رابع أبناء الشيخ سُلطان بن زايد الذي حكمَ الإمارة من عام 1922 حتى عام 1926. يرجع نسب الشيخ زايد – سليل أسرة آل نهيان – إلى قبيلة آل بو فلاح من بني ياس، أحد التجمعات القبلية الرئيسة في الخليج العربي، التي هاجرت من منطقة نجد في شبه الجزيرة العربية.

تلقَّى الشيخ زايد دروساً أساسيةً في القراءة والكتابة وتعاليم الإسلام شأنه – شأن أقرانه. كان يدرس القرآن باستظهار آياته وسوره، وتعلَّم أنَّه كتاب حياة يُرجع إليه في كل شأن، وكان يحفظُ كثيراً من شعر المتنبّي، ويُحب القراءة، ويستمتع بإلقاء الشعر العربي القديم. باستثناء التعليم الديني، كان ما تعلَّمه الشيخ زايد في معظمه تعلُّماً ذاتياً، فلم يكن له معلّم لغات أو رياضيات أو تاريخ، وفي سنواته الأولى في أبوظبي كان يقضي معظم وقته في مجلس والده الشيخ سلطان بن زايد حاكم الإمارة، ما ساعده على تعلُّم الدبلوماسية لدى البدو، وملامح ديمقراطية الصحراء.

كانت «الشيخة سلامة» والدة الشيخ زايد، تتمتَّع بشخصية قوية، وبرباطة جأش عظيمة، وقد أخذت من أبنائها عهداً بألا يلجؤوا إلى العنف أو إيذاء أحدهم الآخر. احتفظت الشيخة سلامة بمكانة رفيعة في مجالس أسرتها، ولم يتوقَّف أبناؤها عن استشارتها. وإعجاباً بدورها البارز في حفظ السلام والاستقرار في أبوظبي، أطلقت عليها السلطات البريطانية لقب «السيدة الأكثر نفوذاً في الساحل المُتصالح»، وكان زايد هو الأقرب إلى أمّه وقيمها.

نقطة الانطلاق الأولى

تولَّى الشيخ شخبوط بن سلطان حُكم أبوظبي في عام 1928، وقد عهد لأخيه الأصغر زايد بولاية العين ومراقبة ولاة القرى الأخرى في أبوظبي. كان زايد حينها في العشرينيات من عمره، لكن أخاه كان يدرك إمكاناته الواعدة. استقبل السُّكَّان المحليون هذا الخبر باستحسان كبير، فقد كان ذا شعبية واسعة بسبب اهتمامه بالناس، وأبدى الشيخ الشاب فهماً حقيقياً لأساليب السياسة القبلية.

كانت مهمَّة زايد الأساسية في العين أن يمثّل مصالحَ الأسرة الحاكمة في أبوظبي، وأن يضطلع بمهام الزعامة على قبائل الواحة، بعد أن أوكلت إليه السلطة الإدارية في الواحة والمنطقة المحيطة بها. تضمَّنت مسؤولياته جمع زكاة التمر في العين، والهيلي، والجيمي، والقطارة، وكان يجمع الضرائب على الماء أيضاً من مستخدمي الأفلاج التي كانت تحمل الماء إلى الواحة، وكانت أهم مسؤولياته في الواحة تطبيق القانون وإحلال النظام في منطقة عُرفت بغياب القانون، ورغم ندرة المساعدات وشحّ الأموال، استطاع زايد السيطرة على الوضع في المنطقة بفضل شخصيته الآسرة وعزيمته القوية. استتبَّ الأمن في المجتمع بعدما تخلَّص زايد من مثيري المشاكل، وعيَّن بعضهم ليكونوا جزءاً من المسؤولين عن تنفيذ القانون في العين وما جاورها.

وكان لجولاته التفتيشية المُكثَّفة أثرٌ كبيرٌ في بناء علاقات الثقة والوئام مع شعبه، وأصبحت كلمتُه محل احترام وتقدير الجميع، وخضع له البدو وبخاصة «آل بو خيل» من «المناصير»، وجماعة «بن حم» التابعين للعوامر، وكان هذا إنجازاً بكل معايير تلك الحقبة الزمنية. احتفظ الشيخ زايد بمنصبه عشرين عاماً، وقد كوَّنت له هذه السنوات المبكّرة خبرةً عملية في مبادئ إدارة الدولة، وساعدته على تطوير أسلوبه القيادي الفريد في الدبلوماسية والحكم.

الشيخ زايد حاكماً لأبوظبي

بعد اكتشاف النفط في منطقة الخليج، كان على الدولة أن تقفز قرنين في عقد واحد، وكان لا بد من اتخاذ قرارات حاسمة بشأن التحديث والتنمية ومواكبة المتغيرات العالمية، رغم كل ما يعنيه ذلك من تغير في أنماط الحياة، وتأثر المجتمع المحافظ بالانفتاح على العالم واستقبال الخبرات الأجنبية التي بدأت تشق طريقها إلى إمارة أبوظبي حيث احتمالات النمو. وكان لا بد مثل هذه الظروف من الموازنة بين التليد والجديد، والعصري والتراثي، والماضي والمستقبل، مع التركيز على استثمار الثروات التي شكلت فرصةً تاريخية للتنمية الاقتصادية خصوصاً، والتنمية الشاملة عموماً.

في ظل هذه التحولات أجمع كبارُ أسرة آل نهيان على اختيار الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان حاكماً لإمارة أبوظبي. وتلقَّى الناس هذا الخبر بالابتهاج والتفاؤل والحماس، وأسهم الحدث في عودة الكثير من السكان الذين كانوا قد غادروا الإمارة إلى الدول المجاورة إثر تدهور الحالة الاقتصادية، وقام حكَّام الإمارات المتصالحة ونوَّابهم، والبحرين وقطر المجاورتين بزيارات ودّية للترحيب بالحاكم الجديد، ووصلت رسائل تهنئة من ملك الأردن، وأمير الكويت، والملك فيصل، ورد الشيخ زايد على إشارات حسن النية بأن أعلن أنَّ سياسته الخارجية ستكون «علاقة تعاون وصداقة مع جيرانه»، وعبَّر عن تطلُّعه لمقابلة الملك فيصل وسلطان مسقط في أقرب فرصة.

المُثل العليا عند زايد

أحد المتطلبات والمحددات الرئيسة لتقييم إنجازات الشيخ زايد يكمن في الفهم الكامل لطريقته الفريدة في التفكير ودأبه ونشاطه الكبير، فقد كان من عاداته أن يعبر عن مثله العليا، ويشرح كيف كان يسعى إلى تجسيدها على أرض الواقع، بأقوال بسيطة لكنها محفزة للفكر وتسترعي الانتباه. هناك أولاً بذور ولآلئ الحكمة التي تجلت مظاهرها بحضوره الكبير وفطنته الأصيلة، فضلاً عن سجية المعرفة البدوية التي تحلى بها زايد، والتي انعكست على سجاياه وفلسفته الأساسية في الحياة والحكم، وتمثلت بالإرث الرائع الذي أودعه للأجيال القادمة

بعد تسلم زايد مقاليد السلطة كَرَّس جُل وقته في إطلاق برامج الإصلاحات السريعة التي حولت أبوظبي تحويلاً جذرياً من منطقة قبلية إلى مدينة حديثة. كان مفهومه للتقدم والتنمية مبنياً على اعتقاده الراسخ أن الدين يحض على التقدم وينادي به، ولا يوجد شيء في القرآن الكريم أو التراث يتعارض مع التقدم وقد حثه إيمانه بالإسلام والعروبة على العمل لمصلحة بلده وشعبه، وكما كان يؤمن بأن: «**أفضل ما في التقدم المادي في الغرب قد تحقق اعتماداً على تراث المسلمين**». وقد قدم الحقيقة التي بنى عليها مفهومه للتقدم المادي والأخلاقي بكلماته التالية: «**تتطلب الحضارة الحقيقية تقدماً علمياً وأخلاقياً، وكل منهما يكمل الآخر... في الواقع سيكون ضرر تقدمنا المادي أكبر من نفعه ما لم يرافق تقدماً ثقافياً واجتماعياً يمثل قاعدة لحضارة يمكن بها أن نوجد مجتمعاً مبنياً على التقاليد العربية الصحيحة، مجتمعاً يمكنه المحافظة على هذه التقاليد من أجل البلدان العربية الأخرى**». وأكد على أهمية اتباع الطريقة الوسطية التي تجمع بعقلانية بين التراث الإسلامي والعالم الحديث.

وانطلاقاً من هذه المقدمة كان زايد يسعى إلى بناء مجتمع جديد مبني على الرخاء والعدالة والكرامة، وهدفه الرئيس هو سعادة بلده وشعبه، وكان يرنو إلى تأسيس «دولة رفاهية حديثة» على قاعدة التقاليد العربية الإسلامية. كما مثلت الأسرة المترابطة والمستقرة، والمجتمع القوي الراسخ في القيم التقليدية لدى الشيخ زايد منزلة أكثر أهمية من الثروة الكبيرة والخير المادي اللذين لم يكونا يعادلان عنده السعادة، أو يقيمان الحياة بشيء من الدقة. فلقد ظل شيخاً من شيوخ الصحراء، وكانت رسالته في الحياة تمثل اندماجاً وتوازناً بين التقدم والمحافظة، وبين التحديث والتقاليد. وينبغي أن نقر بأن إرساء تلك الموازنة لم يكن سهلاً البتة، لكنه كان مرتكزاً أساسياً عند زايد لتحقيق الاستقرار طويل الأمد.

فلسفة الشيخ زايد في الحكم

تمتَّع الشيخ زايد بشخصية عملية، وامتاز باتباع نهج إنساني في التعامل مع شؤون الدولة. ارتكزت فلسفته في الحكم على قناعاته الراسخة وخبراته العملية، لا على النظريات المُجرَّدة والمعرفة الشكلية. ولم يكن عربُ الصحراء المؤمنون بالفردية والمساواة قد ألفوا قيود الحكم واعتادوا عليها، ولم يحاول الشيخ زايد ممارسة سلطاته كحاكم مستبد، بل كان يؤمن أنَّه لا يمكن للقائد أن يكسبَ حبَّ شعبه إلا إذا نال ثقتهم، فيكون لهم كالأب لأولاده: يعتني بشؤونهم، ويهتم بمشكلاتهم، ولا يفضّل أحدَهم على الآخر.

وفيما يتعلَّق بعلاقة الحكومة والشعب، كان جوهر دبلوماسيته تنمية التفاهم المتبادل الذي يدعمه الحوار. أراد الشيخ زايد الحفاظ على نموذج في السلوك يعتمد على التواصل الليّن الذي يُحقّق النتائج ولا يضرُّ بالصداقة بل ويوطد العلاقة. ومن مبادئه التي صاغها بنفسه هو أنَّ من كان في موقع المسؤولية يجب أن يدركَ حدود سُلطته في تسوية الأمور، لأنَّه يتعامل مع إدارات مختلفة، وعندما لا تغطّي التعليمات السارية، المشكلات المشتركة، أو عند وجود اختلاف في الآراء، يجب الرجوع إلى السُّلطة العليا، والحيلولة دون أن يتحوَّل الخلاف إلى نزاع شخصي.

أظهر الشيخ زايد بعد نظرٍ ونُضجاً سياسياً بالتفكير في الاتحاد والتعاون الخليجي في مسائل الدفاع، والسياسة الخارجية، والعملة، والمشروعات المشتركة مثل الطرق، وكان يرى أنَّ الاتحاد سيساعد على درء المخاطر الخارجية. وحرص على تعزيز الشورى والديمقراطية في عملية اتخاذ القرار، فطريقة الحوار والنقاش كفيلة بالوصول إلى أكثر الحلول قابلية للتطبيق، وقد حثَّ شعبَه على التعبير عن رأيه بصراحة، وأراد للشعب أن يشاركَ في إدارة الدولة. لقد اعتمد أسلوب الشيخ زايد في الحكم على ثلاث ركائز: التشاور، والتوسُّط، والتفاعل في السياسة الداخلية والخارجية، وهكذا جمع بين المزايا النموذجية للسياسة القبلية التقليدية والسياسة العلمية الحديثة.

توزيع الثروة والوظائف

لا يجادل أحد في أن عوائد النفط وضعت أبوظبي على عتبة ازدهار غير مسبوق، لكن الشيخ زايد، كان يرى بفكره المستنير وأسلوبه المميز أن تلك الثروة «**ملك للأمة كلها وليست ملكاً لأي فرد بعينه، والقائد مجرد حارس للأمة وثروتها**». وكانت إصلاحاته التي بدأها في أبوظبي ترتكز على إيمانه بأنه «**إذا كان الله عز وجل قد من علينا بالثروة، فإن أول ما نلتزم به لإرضاء الله وشكره، هو أن نوجه هذه الثروة لإصلاح البلاد وسوق الخير إلى شعبها ببناء مجتمع يتوافر فيه المأكل والمشرب ومرافق التعليم والرعاية الصحية والإسكان**».

ولكي ينجز أهدافه السامية ويحقق طموحات شعبه، كان شعاره الذي صاغه بنفسه: «**لا قيمة للمال إذا لم يسخر لخدمة الشعب**». وقد بنى قناعاته على مبدأ الصلاح بأن السلطة قد أوكلت إليه لحماية مصالح الشعب وسيكون بلا فائدة للشعب إن عاش لنفسه واستغل ثروة البلاد لمصالحه الشخصية.

توطين البدو

من أهم ما حرص عليه الشيخ زايد أيضاً توطين البدو في مجتمعات زراعية؛ فَضَنَكُ العيشِ الذي كانوا يقاسونه في سنوات القحط كان مصدر قلق له، ورأى أنَّه لا يتلاءم مع الثراء الذي تتمتَّع به أبوظبي، وفي رحلة صيد إلى المناطق الداخلية عام 1966، أثار اهتمامُه وجود كمّيات من المياه الجيدة بين «طريف» و«ليوا»، فعهد إلى شركة نفط أبوظبي بفحص بعض العينات لقياس نسبة الملوحة التي حسبها أكبر قليلاً من مياه البريمي، وكان قراره أن يأتي في مطلع العام القادم ويبدأ بزراعة بساتين النخيل لتقام حولها مدن وقرى.

بالطبع لا يخلو التحوُّل في أسلوب الحياة من المشكلات، وكانت أكثر المشكلات إلحاحاً تأثير ارتفاع استهلاك الماء

في مستوى المياه الجوفية، ومدى مناسبة التربة للزراعة، وقدرة رجال القبائل على التكيُّف مع الحياة الجديدة ليصبحوا ملاكاً صغاراً قادرين على إعالة أنفسهم، ورغم كل الحوافز المشجّعة للبدو على الاستيطان، والحماسة التي أبدوها. كان الشيخ زايد يشعر بالقلق من أن يؤدّي برنامجه للتطوُّر السريع إلى تفكُّك البنية القبلية ونمط الحياة التقليدي للبدو، لكنَّ ذلك لم يحدث، لأنَّ الحفاظ على التراث والتقاليد كان قضية أساسية بالنسبة إليه، وظلَّت الحياة القبلية قوية، ولم تظهر تغيُّرات سلبية على المنظومة الأخلاقية.

دبلوماسية زايد الشخصية

لم يكن نجاح الشيخ زايد في الحكم نابعاً من جهازه الإداري أو مشاوراته العائلية، بل يمكن أن يعزى إلى «**دبلوماسيته الشخصية**» التي كانت بحق حجر الزاوية في ذلك النجاح. ولطالما أكد الشيخ زايد أن: «**القيادة والشعب كيان واحد متكامل وغير قابل للتجزئة، وإنه لا حواجز البتة بين الحاكم والمحكوم**». وطبقاً لممارسات آبائه وأجداده كان «يتبع دائماً سياسة الصراحة الكاملة والباب المفتوح» في اجتماعاته مع المواطنين والمسؤولين، وكان يرى أن: «**القائد إذا تجنب شعبه فسيكون من المستحيل عليه معرفة حاجاتهم الفعلية بدقة، وهذا يؤدي إلى النفور والغربة، وإلى انصراف السكان عن مثل هذا القائد المغرور**».

تطوُّر التعليم في الأعوام الأولى

بعد وصول الشيخ زايد إلى السُّلطة، بدأت مرحلةٌ جديدةٌ من تنمية التعليم في الإمارة. انصبَّ اهتمامه الأول على بناء الإنسان، إذ كان يؤمن أنَّ الشعب هو المورد الأهم لبلده، أمَّا المال فهو عرضٌ زائل. اتخذ الشيخ زايد الخطوة الأولى في الاتجاه الصحيح بتأسيس إدارة جديدة للتعليم برئاسة الشيخ حمدان بن محمد في عام 1967، وعيَّن الدكتور «هارولد سبنسر» مديراً للتعليم في أبوظبي. أعدَّ المدير خطةً تعليمية شاملة، أكَّد فيها أهمّية التعليم الابتدائي، والمدارس الريفية، ومحو أمّية الكبار، ثمَّ أُعدَّت خطَّة أوسع ترسم الخطوط الأساسية لتطوير التعليم على سبع مراحل بالإمارة.

اتخذت إدارة التعليم مبادرة مهمة لمحو أمية الكبار، وفَتحت مدارس مسائية، وصفوفاً ذات طابع مهني وتجاري للبالغين الذين لا يعرفون القراءة والكتابة، وأعدَّت صفوفاً خاصة للعاملين في المجال الطبي من الوافدين للحفاظ على الأرواح والمعدَّات، وتلقَّى الموظَّفون الحكوميون الذين يقودون سيارات حكومية دروساً في تشغيل المحرّكات، ونُظّمت دورات تدريبية على تركيب الأنابيب، وتمديد الأسلاك الكهربائية، واللحام، والنجارة، والزجاج كجزء من البرنامج التعليمي.

توحيد عملات الخليج

عندما تسلَّم الشيخ زايد السُّلطة في عام 1966، كان قد مضى بعض الوقت على انشغال البريطانيين بإدخال نظام نقدي إلى دول الخليج، وكان احتمال اعتماد عملة خليجية موحَّدة من الفوائد غير المقصودة لانخفاض قيمة الروبية الهندية، وُقّعت اتفاقية لتوحيد عملة الخليج في عام 1965، وقَّعها حكَّام قطر والبحرين وأبوظبي ودبي، وعندما جاء الشيخ زايد إلى الحكم، حرصَ على استكمال هذه الخطوات لتحقيق هذا الحلم، وبدأ بخطوات عملية، فعقد اجتماعاً دعا إليه حكَّامَ دول الخليج الثماني لمناقشة موضوع العملة المشتركة، وعندما برزت هذه القضية في مناقشاته مع المقيم السياسي البريطاني، نَقل إليه أنَّ الحكَّام الثمانية - عدا حاكم البحرين - قرَّروا المضي قدماً في إصدار عملة مشتركة، وكانت هذه مبادرة استشرافية شجاعة، رغم أنَّها لم تتحقَّق في نهاية المطاف. في عام 1967، وبعد عودة المقيم السياسي البريطاني من زيارته إلى الكويت، نقل إلى الشيخ زايد عن أمير الكويت أنَّه ليس لديه اعتراض على توحيد العملة، بشرط أن يقوم تغيير العملة في الخليج على الروبية لا على الدينار كوحدة للعملة، وفي عام 1968 أشار «نديم الباجه جي» على الشيخ زايد بألا تظلَّ العملة مرتبطة بالدينار البحريني، بل يجب إصدار دينار خليجي، فإن لم يكن ذلك مقبولاً من الجميع، عليه أن يصدر عملة لأبوظبي، فأوضح له الشيخ زايد أنَّ أهم أسباب فشل المحاولة السابقة لتوحيد العملة كان إصرار قطر على أن تكون الدوحة مقر مجلس العملة، لكن «الباجه جي» استشهد بمثال مجلس النقد العراقي الذي كان مقرُّه لندن، وفي ظل انشغال الشيخ زايد بالمفاوضات الخاصة باتحاد الإمارات، وُضِعَت قضية توحيد العملة جانباً، بعد أن أرسى أساساً لسياسة مالية مهمة للمنطقة.

العلاقات بين دول الخليج

انطلقت علاقات الشيخ زايد إلى بداية جديدة مع «آل ثاني» في قطر، وقام بزيارتها في نوفمبر عام 1966، بعد 40 عاماً من آخر زيارة قام بها والده، وفيما يتعلَّق بالخلافات الحدودية بين قطر وأبوظبي، فقد قال المقيم البريطاني «ستيوارت كراوفورد» بأنَّه يثق بقدرة الشيخ زايد على التفاوض مع جيرانه، وأنَّ لديه قناعة بأنَّه يستطيع التوسُّط بين دول الخليج - في إشارة إلى الخلافات بين قطر والبحرين.

أمَّا العلاقات مع المملكة العربية السعودية فقد كانت مهمَّة لاعتبارات سياسية واقتصادية واستراتيجية، ولذلك عمل الشيخ زايد كل ما بوسعه لتحسين العلاقات معها. كان الشيخ زايد يقدّر الملك فيصل تقديراً كبيراً، حيث كان رحمه الله يدرك أنَّ المودة والدبلوماسية وروح التعاون والحوار، هي الأسس التي تبنى عليها علاقات الأخوة والجوار، ومن ثم فقد سَّن سُنةً دبلوماسية حسنة وهي أن تكون الأخوة والصداقة هي أساس العلاقة، وهكذا ظل الأمرُ الأسمى هو احترامه الشديد لجارته الكبرى، ورغبته في التعاون مع الملك فيصل، وأبدى استعدادَه لإلغاء تأشيرات دخول المواطنين السعوديين إلى أبوظبي، بشرط موافقة السعودية على المعاملة بالمثل.

مشكلات جديدة وحلول مبتكرة

لا يمكن لطريق التنمية والتغيير أن يخلو من العراقيل، وبخاصة أنَّ سرعة الأداء كانت من أهم سمات العمل عند الشيخ زايد، وفي بلد كان يعاني ضعف البنية التحتية، أتت هذه السرعة بنتائج عكسية لم يكن يتوقَّعها، واجه الشيخ زايد مشكلات جديدة، فمراحل التطوُّر التي أطلقها تطلَّبت حلولاً ذكية، وحين اتضحت له النتائج السلبية لفلسفة الإنجاز السريع، تبنَّى نهجاً أكثر حذراً يقوم على التخطيط.

في ظل ارتفاع عوائد النفط والثراء الذي شهدته الإمارة، برزت حاجة مُلحَّة إلى وسائل فعَّالة لإدارة التوسُّع الضخم في النفقات والعوائد. تضاف إلى ذلك المشكلات الاجتماعية والعمالية المرتبطة بالتوسُّع. من المشكلات التي واجهته حينذاك، إضراب العمَّال في موقع بناء المطار. نتجت هذه المشكلات عن دفع أبناء القبائل للعمل بالطرق الحديثة، ولم تكن رؤية الشيخ زايد للأمور متوافقة مع رؤية الجميع، فأدرك منذ البداية ضرورة تغيير نظام العمل، ولكنَّه كان حازماً في تعامله مع القلاقل أيضاً، ولذلك أعلن قانون العمل الجديد في أبوظبي في 28 نوفمبر 1966، وفيه صيغت قوانين تنظِّم العلاقة بين العامل وصاحب العمل بحيث تصبح تشريعاً قابلاً للتنفيذ أمام المحاكم.

علاوة على ذلك كان النقص في المواد الأولية عامةً، وفي الأسمنت والماء بخاصة، والخدمات الأساسية مثل الكهرباء، يثير قلق التجَّار والشركات الاستثمارية، الطبيعة «المختلطة» للكوادر التي تمَّ توظيفها في البداية، وبعد معاينة جميع أسباب الركود، أصبح من المؤكَّد أنَّ الحلَّ الوحيد للخروج من هذه المشكلات هو إعادة تنظيم الهيكل الإداري الحكومي، وتحقيق التوازن بين سياسة الحاكم على المدى البعيد، وبين ما يمكن تحقيقه على المدى القصير.

تمَّ تكليف مجموعة من الاستشاريين بوضع خطط التطوير المرحلية الخاصة بأبوظبي، ونصح أحدهم الشيخ زايد بتجنُّب المشروعات المفرطة في الإنفاق وغير الاقتصادية، وفيما يتعلَّق بمستقبل الدولة وحجم الهجرة إليها، تمَّ تأكيد ضرورة توافر معلومات دقيقة حول حجم السكان الحقيقي، وتضمَّنت الحلول التي اقترحها المستشارون خططاً لتوزيع الوافدين بين أبوظبي والمناطق الأخرى في «البريمي» و«ليوا» حيث يبدو الاستيطان ممكناً.

عام 1969 ومشكلاته المالية

اتسمت الأوضاع الاقتصادية في عام 1969 بالصعوبة لأنَّ عائدات النفط كانت أقل من التوقُّعات، وكانت الإمارة ملتزمة بسداد دفعات للمورّدين الذين يعملون في مشروعات التنمية الطموحة، ولكنَّ الدفعات والأجور تأخَّرت منذ الربع الأخير من عام 1968، ما سبَّب ضرراً وتأخيراً للمشروعات، وكانت هناك مخاوف من أن يؤدّي هذا الوضع إلى إضراب العمال، وحالة من الفوضى الاقتصادية، فتأثَّرت أسعارُ التجزئة بسبب القروض غير المدفوعة في السوق، وبدأ الناس يعانون ارتفاع الأسعار، وتضرَّر التجار والمقاولون الأجانب، وبدأ عدد المغادرين يزيد على عدد الوافدين بسبب الأزمة الاقتصادية، وبلغ حجم مديونية مشروعات التنمية في أبوظبي عام 1969، 30 مليون جنيه إسترليني، وكان هذا عبئاً كبيراً على الإمارة تمَّ تحميله لعام 1970.

أثارت هذه الأزمة ذعر المسؤولين، حيث وصل تأخُّر مستحقَّات موظَّفي الحكومة وأجورهم إلى ثلاثة أشهر، وكانت هناك مؤشّرات تؤكّد امتداد هذه الحالة إلى القوَّات المسلحة، وقد ذكرت بعض التقارير أنَّ محمود حسن جمعة، مدير التخطيط في الإمارة، ومعه مدير بنك أبوظبي الوطني يُجريان بعض التحرّيات حول إمكانية الحصول على اعتمادات مالية لتمويل مشروعات بقيمة 60 مليون جنيه إسترليني.

قرَّر المسؤولون في ذلك الوقت أن يعهدوا إلى «الباجه جي» - المستشار المالي للحاكم - بمهمَّة تقديم المشورة والنصح بشأن الخطوات الطارئة التي ينبغي اتخاذها حتى يتم تعيين مدير للمالية. أخبر «الباجه جي» الشيخ زايد أنَّه ليس من الحكمة الحصول على قروض في الظروف الحالية، وكان الشيخ مقتنعاً بعدم ضرورة الحصول على قروض، وأنَّه ينبغي أن يبقي نفقاته في حدود عوائده.

وجَّه الشيخ زايد جهوداً مُركَّزة لإنهاء الأزمة الاقتصادية، وبدأ بعدد من الترتيبات الإصلاحية لتقليص الإفراط في الإنفاق على الخدمات والمشروعات، وبعد فترة بدأت النتائج الإيجابية تظهر للجميع. كانت أبوظبي في حاجة إلى عام هادئ لتتمكَّن من استعادة تماسُك مؤسَّساتها، وإعادة تنظيم عملها.

التحدّيات الداخلية والخارجية

في عامي 1967 و1968، وقع حدثان بارزان في المنطقة كان لهما أثر كبير في السياسة العربية. هذان الحدثان هما: الصراع العربي الإسرائيلي، وانتهاء الحكم الاستعماري في عدن نتيجة الانسحاب البريطاني من جنوب شبه الجزيرة العربية. أصدر الشيخ زايد مرسوماً أميرياً في 4 يونيو 1967 بوقف تصدير النفط إلى الدول التي تساند إسرائيل، وقال الشيخ زايد: «لديَّ العديد من الأصدقاء البريطانيين والأمريكان، لكنّي عربي أولاً وأخيراً، ولذا أعطيت تعليمات صارمة بألا يتمَّ تحميل أية ناقلة نفط أمريكية أو بريطانية»، وفوق هذا ألزم أي ناقلة - بغضّ النظر عن جنسيتها - بأن تقدّم شهادة توضّح المكان الذي تقصده، وأن تقدّم بعد عودتها شهادة أخرى تثبت أنَّها فرَّغت حمولتها في نفس المكان.

أمَّا الحدث الآخر فهو إعلان الحكومة البريطانية في يناير 1968 عن انسحابها من الخليج بحلول عام 1971، وأدَّى ذلك إلى تحوُّل جوهري في تفكير الشيخ زايد السياسي. لقد أدرك أهمّية وضرورة الانتقال إلى مرحلة الاستقلال والاعتماد على النفس في فترة قصيرة، وكانت هناك حاجة ماسَّة إلى تقوية قدراته الدفاعية لردع المخاطر الداخلية والخارجية، وأصرَّ الشيخ زايد على تكوين قوَّة دفاعية عربية تضمُّ كشَّافة عمان المتصالحة، وأي قوات أخرى لاحقاً، وكان (رحمه الله) يأمل بوضع هذه القوَّة تحت تصرُّف جميع حكَّام الإمارات إذا احتاجوا إليها لصد أي خطر خارجي.

رؤية الشيخ زايد السياسية

عزَّزت تجارب الشيخ زايد إيمانَه بأهمية الوحدة العربية، وكان جوهر فلسفته السياسية هو أنَّ في الوحدة قوةً، حيث لا مكان في المستقبل للكيانات الهزيلة. كان يتمنَّى أن يتمكَّن من أداء دوره كاملاً في مجلس الإمارات المتصالحة، ومن توثيق علاقته بالحكام من خلال المساعدات المالية التي ينوي تقديمها، وأن يموّل المشروعات التنموية في الإمارات الأخرى، وقد وصلت مساهماته إلى 500 ألف جنيه إسترليني سنوياً.

وفي مطلع عام 1967 أعاد الشيخ زايد طرح رؤيته للإمارات المتصالحة ومجلس المصالحة، وأعرب عن نيَّته بتقديم المساعدات للإمارات الشمالية المتصالحة، لأنَّه لا يريد أن يرى أحد الحكام يتجاوز حدوده بطريقة تقوّض الاتحاد. لقد كانت هناك عراقيل عديدة في طريق الاتحاد، حيث كان الاتحاد يتطلب تخلّي بعض الحكام عن جزء من سُلطتهم، ولكن لم تكن الخطوات العاجلة واضحة تماماً في البداية.

الوحدة بين أبوظبي ودبي

كان الوقت قد حان لكي يسعى الشيخان زايد بن سلطان وراشد بن سعيد إلى تسوية الخلافات الموروثة بينهما، التي كانت تقف حائلاً دون وحدة الإمارتين، وكانت مرتبطة بالحدود، وقد صرَّح الشيخ زايد بترحيبه بعودة العلاقات، واستجاب الشيخ راشد لمبادرته، وقد لاحظ المراقبون السياسيون أنَّ الشيخين يتمتَّعان بقوَّة وذكاء سيمكّنهما من توجيه باقي الإمارات إذا تغلَّبا على مشكلات الوحدة، وسارا في طريق الاتحاد.

كان واضحاً أنَّه إذا أصرَّت أبوظبي على المطالبة بحدودها مع دبي، فسيؤدّي هذا إلى حرمان الشيخ راشد من حقول النفط التي يملكها، فأظهر الشيخ زايد قدراً عظيماً من الحسّ الإنساني، وقال إنَّه لا يريد أن يحرم دبي من أي شيء، بل ويأمل أن يطولَ الرخاءُ الجميعَ.

بعد إعلان انسحاب بريطانيا من الخليج، عقد الحاكمان اتفاقاً ثنائياً في منطقة السميح، وأصدرا بياناً مشتركاً في 18 فبراير 1968 عن تأسيس الاتحاد بين الإمارتين بعلم واحد، وتوصَّل الحاكمان إلى تسوية الخلاف حول الحدود البحرية في نفس اليوم الذي تمَّ فيه اتفاق الوحدة، وكان الشيخ زايد متعاوناً تماماً حتى أنَّه منح الشيخ راشد حقولَ النفط في البحر، مُخاطراً بالتعرُّض للانتقاد الشديد ممَّن كانوا يعتقدون أنَّه يتنازل عن مناطق تابعة لأبوظبي، لكنَّ سير الأحداث في المستقبل أثبت أنَّ هذه الأحكام لم تكن صحيحة.

اتحاد الإمارات العربية

تحوَّلت اتفاقية عام 1968 إلى خطَّة عمل واسعة، واجتمع حكام الإمارات المتصالحة والبحرين وقطر في دبي بين 25 و27 فبراير، وأعلنوا إنشاء اتحاد بين الإمارات، وكان التركيز على تبنّي استراتيجية موحَّدة في الدفاع والسياسة الخارجية، ورحَّبت الدول العربية بالاتحاد واعتبروه إنجازاً عظيماً، لكنَّ الحماس الذي بدأ به الاتحاد لم يدم طويلاً، فقد بدأت بعض الخلافات تطفو على السطح، وتباطأت خطى الوحدة، وفوق الخلافات الداخلية، كانت مطالبة إيران بالبحرين تحديداً من أصعب العقبات أمام الاتحاد، لأنَّها حالت دون انضمام البحرين للاتحاد. فشلت محاولة إقامة اتحاد من تسع إمارات بسبب هذه العقبة وغيرها من المعوّقات الأخرى، واستمرَّت المحاولات والوساطات بين حكَّام الإمارات إلى عام 1971، وفي

23 نوفمبر التقى حكّام دبي وأبوظبي ومعهم الشيخ محمد بن راشد وعديّ بيطار من دبي، ومحمد حبروش من أبوظبي، إضافةً إلى أحمد السويدي ومانع العتيبة ومهدي التاجر، وفي هذا الاجتماع تمَّ التخطيط للاتحاد وتحديد تاريخه، وتمَّ إرسال مندوبين إلى الدول العربية لإعلامهم بنبأ الاتحاد، وفي أول ديسمبر اتفق حكّام الإمارات السبع على إنهاء المعاهدة الخاصَّة بكل منهم مع السلطات البريطانية، وانتُخب الشيخ زايد رئيساً للاتحاد لمدة خمسة أعوام، وعُين الشيخ راشد نائباً للرئيس، والشيخ مكتوم بن راشد ولي عهد دبي رئيساً للوزراء، وتكوَّنت الإمارات العربية من سبع إمارات: أبوظبي، ودبي، والشارقة، وعجمان، وأم القيوين، ورأس الخيمة، والفجيرة.

وعندما نقلت صحف القاهرة في 2 ديسمبر 1971 خبر تأسيس دولة الإمارات العربية المتحدة، اعترفت الحكومة المصرية بها فوراً، وفي يوم 16 ديسمبر اعترفت بالدولة الجديدة معظم الدول المهمَّة في العالم.

إنجاز رسالة زايد

إن محاولة الإحاطة بالشخصية البارزة والإنجازات المتعددة الجوانب لرجل بعظمة الشيخ زايد تكاد تكون مهمة مستحيلة، ففي وقت لم يكن لدى الإمارات ما تقدمه إلا النزر اليسير، لم يغب جانب من جوانب النشاط في المجالات الاجتماعية أو الاقتصادية، أو الثقافية أو السياسية عن جدول أعماله الإصلاحي والتنموي. وجاء إلى السلطة متعهداً بتقديم أفضل ما يمكن تقديمه لبلده وشعبه.

وباعتباره أحد أبرز القادة قوة وشعبية ونشاطاً وتبنياً للنهج الإصلاحي، ظل متصدراً استطلاعات الرأي بين شعبه دون أي منازع. وفي الثاني من ديسمبر 1971 فاز زايد بالرئاسة بسهولة، ليس على إمارة أبوظبي بل على اتحاد الإمارات العربية المتحدة.

لقد وضعت ولادة الإمارات العربية المتحدة الأساس لأكثر نماذج التكامل نجاحاً في التاريخ العربي الحديث. وكان ذلك ثمرة لرؤية الشيخ زايد الفذة ورسالته في الحياة التي جسدها في بعض عباراته الشهيرة: «الاتحاد أمنيتي، وأسمى أهدافي لشعب الإمارات العربية».

سيبقى الشيخ زايد -رمز الشجاعة والتضحية في سبيل القضايا النبيلة- ماثلاً في ذاكرة وقلوب الأجيال القادمة في الإمارات أباً للأمة، وفي الوطن العربي رمزاً مثالياً، وفي العالم عموماً حاكماً حبي مناقب نادرة في القيادة والحكم والقيم الإنسانية كرسها لخدمة البشرية.

رجلٌ سبق عصره

لم يكن الشيخ زايد رجل عصره فحسب، بل كان سابقاً لعصره، وقد حظيَ بتقدير استثنائي وتفويض شعبي بقيادة الإمارات العربية المتحدة لمدة 33 عاماً حافلة بالإنجازات حتى وفاته في عام 2004، وما زالت الإمارات العربية المتحدة بقيادة خلفائه تواصل مسيرتها بوحي روح العصر الجديد من نجاح إلى نجاح.

كتب مشابهة:

القوة الناعمة في الصفات القيادية لزايد

ضاحي خلفان

خمسون عامًا في واحة العين

عبدالحفيظ خان اليوسفي

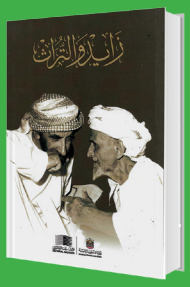

زايد والتراث

سيد حامد حريز

قراءة ممتعة

ص.ب: 214444
دبي، الإمارات العربية المتحدة
هاتف: 3444 423 04
نستقبل آراءكم على pr@mbrf.ae

تواصلوا معنا على

MBRF_News
MBRF_News
mbrf.ae
www.mbrf.ae

qindeel_uae
qindeel_uae
qindeel.uae
qindeel.ae

قنديل | Qindeel
للطباعة والنشر والتوزيع
Printing, Publishing, and Distribution

مبادرات محمد بن راشد آل مكتوم العالمية
Mohammed Bin Rashid
Al Maktoum Global Initiatives

جائزة محمد بن راشد آل مكتوم للمعرفة
MOHAMMED BIN RASHID AL MAKTOUM
KNOWLEDGE AWARD

جائزة محمد بن راشد آل مكتوم للمعرفة

MOHAMMED BIN RASHID AL MAKTOUM
KNOWLEDGE AWARD

تعلن جائزة محمد بن راشد آل مكتوم للمعرفة
عن فتح باب الترشح أمام الأفراد والمؤسسات للفوز بالجائزة عبر الموقع الإلكتروني
The Knowledge Award announces opening of nominations to
individuals and organizations through the website

www.knowledgeaward.org

تكريماً للإنجازات العالمية في مجال المعرفة والابتكار
Honoring International Achievements in Knowledge & Innovation

الموعد النهائي لاستلام الطلبات: 25 يونيو 2018
Submission Deadline : 25th June 2018

KnowAward KnowAward KnowAward #KnowledgeAward # جائزة_المعرفة